آليات الدفاع عن النفس والتحليل النفسي للأدب
دراسة نفسية لرواية "أنا، هي والأخريات" لجنى فواز الحسن.
أ.الدكتورة كيّسة ملاح جامعة امحمد بوقرة بومرداس- الجزائر.

مقدمة:

تمثل العلاقة بين الأدب وعلم النفس علاقة جدلية لازلت إلى الآن تثير عديد الإشكالات، فمنذ أن اعترف فرويد بأن أفضل معلميه هم الأدباء*، احتّل النص الأدبي مكانة مهمة في الدراسات النفسية، فكثيرا ما كان النص الأدبي منطلقا لاكتشاف أعراض نفسية، كما وُظف لتوضيح كثير من المفاهيم النفسية، ومن بين هذه المفاهيم مفهوم آليات الدفاع عن النفس أو ميكانيزمات الدفاع التي ستتمحور إشكاليتها حول كيفية توظيف آليات الدفاع عن النفس في نص "أنا، هي والأخريات" من خلال هذه المحاولة.

والهدف من ذلكليس اختبار فعالية المنهج النفسي، وإنجاز دراسة نفسية تقليدية، فالنص الأدبي هو الذي يفرض منهج قراءته بطريقة تفتح القراءة أمام احتمالات متعددة بعيدا عن الاسقاط والتعسف. ولكن الهدف هو اختبار مدى فعالية مفهوم آليات الدفاع في دراسة الشخصيات الروائية.

ولتحقيق هذا الهدف اخترنا نص "أنا، هي والأخريات" لجنى فواز الحسن، وهو نص يندمج ضمن السرديات النسوية التي صنفها النقاد سرديات المهمشين.

1-تعريف آليات الدفاع عن النفس:

ظهر مصطلح آليات الدفاع عن النفس أو ميكانيزمات الدفاع (Defensemechanisms) في إطار نظرية التحليل النفسي لفرويد(Freud, Sigmund)، الذي يعرفها "كوصف عام لجميع الحيل التي يستخدمها الأنا في حالات الصراع التي قد

*-يقول فرويد: "الشعراء والروائيون حلفاء كرام على كل حال، ومن الواجب تقدير شهادتهم حق قدرها، لأنهم يعرفون، فيما بين السماء والأرض، بأشياء كثيرة لا تجرؤ حكمتنا المدرسية على أن تحلم بها بعد، وهم في معرفة النفس البشرية، معلمونا وأساتذتنا نحن معشر العامة، لأنهم ينهلون من موارد لم نفلح بعد في تسهيل ورودها على العلم" (سيغموند فرويد: الهذيان والأحلام في الفن، تر: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1978، ص 07).

تؤدي إلى العصاب"[1]، فهي مجموعة من العمليات النفسية التي يمارسها الفرد في مستوى اللاشعور ليتمكن من تجاوز المشاعر السلبية.

وتنشأ آليات الدفاع عن النفس حسب فرويد نتيجة الصراع بين الهو Idوالأنا Egoوالأنا الأعلىSuperego، "فالجهاز العقلي يستخدم قبل انقسامه الدقيق إلى أنا وهو وقبل تكوين الأنا الأعلى وسائل للدفاع تختلف عن تلك الوسائل التي يستخدمها بعد وصوله إلى هذه المستويات من التنظيم"[2]، يرى فرويد أن الحوادث المرضية لم تنس في الأمراض العصابية القهرية، بل بقيت في اللاشعور، ولكنها عُزلت بطريقة ما لم يستطع فرويد فهمها، وهو ما ستوضحه لاحقا ابنته "آنا فرويد" (Freud, Anna)التي توسعت في دراسة آليات الدفاع.

وتضمن مفهوم فرويد لآليات الدفاع "جميع الأساليب النفسية التي تستغلها الأنا في الصراعات التي قد تؤدي إلى العصاب"[3]

فالمقصود بآليات الدفاع عن النفس الإجراءات أو العمليات النفسية ومقاومات الأنا وتدابيره الدفاعية ضد الدوافع الغريزية، والكيفية التي يدافع بها عن نفسه ضد الانفعالات الوجدانية غير المرغوب فيها، فالدوافع الغريزية "بما عرف عنها من عناد وحيوية تستمر في نشدان أهدافها، وتشرع بأمل مباغتة الأنا والسيطرة عليه، بشن غـــارات عدائية في داخل أرضه، بينما يجنح الأنا بدوره إلى الإرتياب والحذر، وقد يشن هجوما مضادا ويتوغل في أرض الهذا، فهو يتطلع إلى أن يشل الدوافع الغريزية بصورة نهائية متوسلا إلى ذلك إجراءات دفاعية من شأنها تأمين حمايته"[4]

يتخذ الأنا إجراءات دفاعية ضد الهو، وكما ترى "آنا فرويد" فإن آليات الدفاع تتيح لنا أن نرى الأنا والهو وهما على قيد العمل في آن معا، وما نشاهده عندئذ ليس مجرد دافع غريزي من دوافع الهو، وإنما هو دافع غريزي أصابه التعديل والتحريف جراء التدابير الدفاعية التي اتخذتها الأنا.

---

[1]- فرويد، سيجمند: الكف والعرض والقلق، تر محمد عثمان نجاتي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د. ت، ص 144.

[2]-المرجع نفسه، ص 145.

[3]- إيليفتش وجليسر: قائمة ميكانيزمات الدفاع، تر محمد الدسوقي، جامعة المنوفية، القاهرة، د. ت، ص 01.

[4]-فرويد، آنا: الأنا وآليات الدفاع، تر: جورج طرابيشي، مكتبة الفكر الجديد الالكترونية، د،ت، ص 341.

فيقصد بآليات الدفاع "تمرد الأنا على التمثلات والانفعالات العاطفية الأليمة أو غير المحتملة"[5] وقد يتدخل الأنا ليفرض تحولا في الانفعالات العاطفية، كما تُعرف آليات الدفاع بأنها "استعدادات استجابية ثابتة نسبيا تساعد على تحريف الواقع حينما تكون موارد الشخص ومهاراته أو دافعيته غير كافية لحل الصراعات الداخلية أو السيطرة على التهديدات الخارجية"[6] ما يعني أن آليات الدفاع عبارة عن ردود أفعال لاشعورية تعمل بطريقة آلية حينما تكون التهديدات المدركة مؤلمة أكثر من اللازم بحيث لا يمكن مواجهتها شعوريا، وقد لاحظ علماء النفس العيادي أن آليات الدفاع لها تأثير قوي في تحديد كيفية تعامل الفرد مع تجارب الحياة المتوترة.

ومن المفترض أن تشتغل هذه الآليات في مستوى لاشعوري، ويمكن الاستدلال على هذه العمليات من خلال ملاحظة الأعراض النفسية الجسمية، أو من خلال اتخاذ رد فعل مخالف أو غير مناسب، أو من خلال السهو أو الاغفال الاختياري، أو تشويه معنى التهديدات المدركة أوإبعادها من الشعور، كما تعمل هذه الآليات على التقليل من القلق أو تعلي من إحساس الفرد بالسعادة، وانتقاء ما يتذكره الفرد وتحدد كيفية تفسيره[7].

1-2-أنماط آليات الدفاع:

هناك أنماط مختلفة لآليات الدفاع، حددها "إيليفتش وجليسر" (Ihilevich & Gleser) في أكثر من أربعين (40) نمطا لم يتم تحديد كثير منها بوضوح، كما هناك تباين واضح ومتضارب في استخدام مفهوم آليات الدفاع، وفي تسمية وترجمة أنماط آليات الدفاع، وهناك تسع آليات لخصها فرويد في البداية وهي: "النكوص Regression والكبت Repression والعزلة Isolation والإلغاء أو الإبطال Undoing والإسقاط Projection والتكوين العكسي Reaction_formation والإدماج أو الإحتواء Introjection والتحول أو الانقلاب ضد الذات Turning aginst self والتحول العكسي أو أسلوب الدفاعي العكسي Reversal "[8] وأضافت "آنا فرويد" آليات أخرى تتمثل في "التسامي Sublimation والنقل Displacement والإنكار Denial والتقمص Identification"[9].

---

[5]- المرجع نفسه، ص 371.

[6]- إيليفتش وجليسر: قائمة ميكانيزمات الدفاع، ص 06.

[7]- المرجع نفسه، ص 01.

[8]-المرجع نفسه، ص 03.

[9]- المرجع نفسه، ص 03.

كما أضاف علماء النفس آليات دفاعية أخرى منها آلية العدوان Aggression، آلية التبرير Rationalization والتسويغ Justification، آلية الصراع النفسي Conflict، آلية الإحباط Frustration*، بالإضافة إلى آلية الخيال والتخيل، آلية التعويض، آلية الانسحاب.....

فمفهوم آليات الدفاع يمكن أن يشمل جميع العلميات النفسية التي لها الهدفنفسه، وهو وقاية الأنا من الرغبات الغريزية والمشاعر السلبية، وللتأكيد على تعدد عمليات الدفاع يرى فرويد أن العملية التي عُزلت بها الدوافع الغريزية في العصاب القهري لا يمكن أن تكون هي العمليةنفسها التي تعمل في الهستيريا، ونظرا "لتعدد الميكانيزمات الدفاعية فكّر كثير من علماء النفس في فحص العلاقة بين استخدام هذه الميكانيزمات وبين وجود اضطرابات محددة في الشخصية، فقد توصلت آنا فرويد إلى وجود علاقة بين الهستيريا والكبت، وبين العُصاب القهري Obsessional neurosis والعزلة والإلغاء"[10].

كما لاحظ باحثون آخرون ارتباط الوسواس القهري بالنكوص والتكوين العكسي، وارتباط البارانويا بالإسقاط، والشخصية العدوانية بالإنعزال، والشخصية الهروبية بأحلام اليقظة.....

وتتم الآليات الدفاعية بلا ضجة وبصورة غير منظورة، فمثلا في حالة الكبت يجهل الأنا هذا الكبت ولا يفطن إليه إلا في وقت لاحق حينما يتضح له أنه يفتقد شيئا ما.

1-3-بواعث آليات الدفاع عن النفس:

تتمثل بواعث آليات الدفاع حسب "آنا فرويد" في الدفاع خوفا من الأنا الأعلى في عصاب الراشدين، والدفاع من جراء خوف فعلي في العصاب الطفولي، والدفاع خوفا من قوة الدوافع الغريزية**، فأبرز بواعث الآليات تنبع من النزاع بين الأنا والدوافع الغريزية، وأي صراع بسيط بين الدوافع الغريزية والأنا يكفي لتحريك آلية من الآليات.

---

* - ينظر: خير الله عصّار : مقدمة لعلم النفس الأدبي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص ص 78، 79، 80، 86.

[10] - إيليفتش وجليسر: قائمة ميكانيزمات الدفاع، ص 04.

** - ينظر: فرويد، آنا: الأنا وآليات الدفاع.

وحسب فرويد تنشأ آليات الدفاع نتيجة الصراع بين الأنا والهو والأنا الأعلى، وهي وسائل وأساليب توافقية لاشعورية تشوّه الحقيقة ويستخدمها الفرد لخفض التوتر والقلق الذي يهدد أمنه النفسي.

2- دراسة نفسية لرواية "أنا، هي والأخريات"

بداية يمثل نص "أنا، هي والأخريات" لـ"جنى فواز الحسن"[***] نصا سرديا متميزا ينتمي لما يمكن تسميته بتيار الوعي القائم على الحكي الجواني(Homodiégitique)، وهو ما يمنحنا القدرة على الاقتراب من النص نفسيا، والقراءة النفسية في اهتمامها بالوظيفة النفسية للنص، تتضمن كذلك التحليل والتأويل ودراسة السياق.

فالأدب يقدم "وجهة نظر حول واقع الإنسان ووسطه وحول الكيفية التي يدرك بها الإنسان هذا الوسط والروابط التي يقيمها معه، والتحليل النفسي يقدم نفسه بطريقة مماثلة"[11]، ويرى "جان بيلمان نويل" أن الأدب والتحليل النفسي يشتغلان بالطريقة نفسها "فهما يقرآن الإنسان في حياته اليومية وداخل قدره التاريخي ويسعيان لبلوغ حقائق بالحديث عن الإنسان وهو يتحدث"[12]

ويمكن القول إن نص "جنى فواز الحسن" ينتمي إلى ما يمكن تسميته بالسرديات النسوية التي تعمل على إعادة كتابة الذات النسوية وإعادة الاعتبار لبعض التصورات النظرية واتباعها ليس بما يكون مطابقا لمقولات سابقة بل بتفكيكها وكشف منابع قوتها وضعفها، وتهدف هذه السرديات لإعادة تأكيد تفرد هوية النساء وكشف تحول الصور النمطية في المجتمع وفي الأدب والفن والفلسفة إلى وسائط تحرر ذاتية، وتحمل هذه السرديات هما أخلاقيا آخر متمثلا في الوضع الاجتماعي للنساء وتشييء ذواتهن، وهو ما حاولت الكاتبة تصويره وكتابة المرأة في المجتمع اللبناني، وفي مجتمع سجن المرأة داخل مثاليات وهمية ضيقة الأفق، تبني هويتها على أساس الحد الفاصل بين الدوافع

[***]- فواز الحسن، جنى: أنا، هي والأخريات، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط 2، 2013.

[11]- المودن، حسن : الرواية والتحليل النصي، قراءات من منظور التحليل النفسي، منشورات الاختلاف، الجزائر/ دار الأمان، الرباط/ الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2009، ص 13.

[12]- المرجع نفسه، ص 13

اللاشعورية وما هو اجتماعي، وإن كان ما هو اجتماعي يضغط على ذلك التفاعل لتكون الذات "في حالة سيرورة هوية متعددة الجوانب لا تثبت ولا يتم تشكيلها أبدا"[13]

2-1-دراسة عنوان "أنا، هي والأخريات"

يحيلنا العنوان مباشرة إلى الجهاز النفسي الذي حدده فرويد في نظريته للتحليل النفسي "الأنا، الهو، الأنا الأعلى"، فهناك نوع من التقابل بين مكونات العنوان والجهاز النفسي:

الأنا ⟷ الأنا

هي ⟷ الهو

الأخريات ⟷ الأنا الأعلى

سنجد أن السرد قائم على شخصية سحر الشخصية الرئيسية في الرواية، وهو سرد بضمير المتكلم، وهنا تظهر الأنا، أما الهو فهو الشخصية الثانية لسحر التي تظهر منذ بداية النص منفصلة عن واقعها، تعيش على مسافة من حياتها التي تحدث، تتفرج على واقعها من بعيد، وكأن "هذه الأنا التي تعيش فعلا تقابلها "أنا" أخرى تراقب الأحداث وتسجلها"[14].

وكانت العلاقة بينهما علاقة متوترة، تتراوح بين التقارب والانفصال، فلم تكن علاقة سوية، ولكن علاقة مشوهة، فتقول الساردة "أكاد أدوخ من ثقل ذاك الباطن المتعطش دوما لحياة أكثر تشويقا وغنى وأقل روتينية"[15].

يمكن القول إن الأنا تمثل الشخصية التي تعيش فعلا، في حين تقابل هي الشخصية التي تراقب الأحداث وتسجلها، وقد تكون هالة صديقة سحر الشخصية الإشكالية الثانية في الرواية والتي ستندمج فيها شخصية سحر بعد تعرضها للانهيار العصبي.

فـ"أنا" العنوان تقابل "أنا" سحر، في حين تقابل "هي" هالة الشخصية القوية التي تقابل الشخصية الضعيفة والخانعة لسحر، تقول سحر "تصورتها دوما ذاك النقيض وكل ما تجمع الأضداد من قسوة ولين"[16].

---

[13]- بكايّ، محمد: جدل النسوية، فصول نقدية في إزاحة الدوغمائيات الأبوية، دار الأمان، الرباط/ منشورات الاختلاف، الجزائر/ منشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2019، ص 227.

[14]_ الرواية، ص 07

[15]-الرواية، ص 24.

كما أن أنا سحر كثيرا ما تتلبس بشخصيات أخرى، "فألبس هوية الصنم التي رسموها للنساء منذ بدء التكون"[17].

تتداخل الضمائر وتتلبس على سحر شخصيات تلك النسوة اللواتي رضين بالخضوع والنخوع، ولكنهن ساهمن في الحياة البائسة التي تحياها النساء، وكان رد فعل سحر انفصاما في الشخصية بين الأنا والهو.

في حين تمثل الأخريات باقي الشخصيات النسوية في النص، والتي تمثل الأنا الأعلى في الجهاز النفسي، المجتمع، الضمير، الأخلاق، قد تكون الأخريات في هذا النص هي الأم التي تشكل هي الأخرى حالة نفسية، وقد تكون العمة العانس التي فضلت أن تموت وحيدة على أن ترتبط بشخص لا تحبه، والأخريات مرتبطات بالآخر الذي شكل لغزا محيرا و"عالما يجب اختراقه ومعرفة ما يدور فيه"[18]، وهنا تحضر تلك الثنائية الأنا/ الآخر، كما كان هذا الآخر مخترقا للأنا فقد "وُجد ذاك الآخر في نفسي وحسب، وبأشكال مختلفة"[19].

وهي تروي قصصهن نجد سحر تتلبس أحيانا بحكايات مختلف النسوة اللواتي عرفتهن، "كنت حقيبة سفر بجسد عابر بين الأماكن يبحث عن هوية مختلفة لهؤلاء النساء اللواتي أعرفهن"[20].

فالأخريات في حياة سحر يشكلن آخر جوانيا تلبّس بالهو حينا وبالأنا الأعلى حينا آخر، كما يمكن القول أن الأخريات في عنوان الرواية يحيلنا إلى الشخصيات النسائية في حياة سحر، مثل الأم، والخالة والعمة سامية، وصديقتها هالة وجارتها زينب أم البنات التي ماتت بعد ضرب مبرح من زوجها وتركت بناتها الثلاث اللواتي قررن الصلاة يوميا لوالدتهن لكي يستجيب الله ويعيدها إليهن، "لم أستطع يوما نسيان تلك الحادثة ولا منظر الفتيات أو الألم الذي لفّ ملامحهن"[21].

وهي شخصيات مأساوية مختلفة في درجة وكيفية المعاناة والآلام ولكنها تشترك في معاناتها من نظرة المجتمع وسلطة وإهمال الرجل.

---

[16]-الرواية، ص 168.

[17]-الرواية، ص 170

[18]-الرواية، ص 07.

[19]-الرواية، ص 08.

[20]- الرواية، ص 111.

[21]-الرواية، ص 74.

2-2- دراسة آليات الدفاع عن النفس في رواية "أنا، هي والأخريات":

أ- آلية الخيال والتخيل(Imagination méchanism):

تدل هذه الآلية على كل ماله "علاقة بالخيال والملكات والقدرات الإبداعية، أما الرفيق أو الصاحب الخيالي فإنها تحدث في الأطفال بين سن 03 و10 سنوات بنسبة 50% وقد يكون في صورة شخص أو دمية يرتبط بها ويتحدث إليها الطفل من ذوي الذكاء العالي لتخفيف الشعور بالوحدة والقلق، وتختفي هذه الحالة عادة بعد سن 12 سنة"[22].

تنكر الشخصية في آلية التخيل الواقع وتقولبه وفق مرادها وطبقا لرغباتها، وتخفف هذه الآلية عن الإنسان الضغوط الواقعة عليه إذا ما استخدمت استخداما أمثل، ولكنها ستصبح حالة مرضية باستمرارها وتحويل الواقع إلى أحلام يقظة، وتهدف هذه الآلية إلى العودة إلى عالم الخيال لتحقيق ما عجز عن تحقيقه في الواقع.

واللجوء إلى آلية الخيال يكشف أن الأنا ترفض الاعتراف بالواقع، لهذا تبدأ بإنكاره وتحلّ محله وقائع متخيلة.

تمثل آلية الخيال أبرز آلية دفاعية وظفتها سحر ويظهر هذا الأمر من بداية النص، حين تظهر الشخصية منفصلة عن الواقع، تصنع عالما خياليا "أمضيت فيه ساعات طويلة مع أصدقاء وهميين يتحدثون ويتهامسون ويتشاجرون"[23]

كما أنها كثيرا ما اختلقت شخوصا في مخيلتها "فأحببتها كثيرا وعجزت عن أن أكون معها"[24]

فأصبحت سحر بفضل هذه الآلية غير آبهة بالواقع، لأنه مكنها عن طريق هذه الآلية أن تلغي قسما أكبر مما كان يسبب لها الحزن والكدر، وتعيش في أحلام اليقظة، ومن المعروف أن أحلام اليقظة تعمل على توسيع نطاق واقع ضيق، أو تعمل على قلب ذلك الواقع إلى نقيضه.

ونظرا لضعف الدوافع الغريزية في أحلام اليقظة فإنه لا يمكنها أن تلغي الألم الذي تعاني منه الأنا، وهي تعمل كمسكن مؤقت أو وهمي لهذه الآلام، ويظهر دور أحلام اليقظة أكثر في طور الطفولة، لذلك نجد سحر تعيش في عالم خيالي بعيدا عن جو البيت

---

[22]- الشربيني، لطفي: معجم مصطلحات الطب النفسي، مركز تعريب العلوم الصحية/ مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، د. ت، ص 81.

[23]- الرواية، ص 07.

[24]- الرواية، ص 11.

المشحون بالتوتر بين الأب والأم، وابتكرت في ذهنها بيتا تغيّر فيه كمـــا تشاء تستضيف فيه من تشـــاء، لأنفي الواقع بيتهم لم يكن يستضيف أحدا، نظرا لرفض الأب الزيارات وكذا لطبيعة الأم التي كانت ترفض أي تغيير في ديكور البيت، وقد أحبّت سحر الأشياء "التي أقامت فقط في داخلي، وكنت أشعر بالأمان حين أنسج الوقائع في خيالي، وأحيا تفاصيلها حينا، ثم أنهيها وقتما أشـــاء، ورغم أني لم أميّز متى أصبحت فعلا موجودة ومتى كنت غائبة، عرفت أنها أنا التي تتحكم بزمام الأمور"[25]

تعيش سحر في طفولتها عالما خياليا موازيا للواقع، "انشغلت باللهو مع ذاتي، مع الدمى والأوهام التي امتلكتها"[26]، ولكنها ستدرك لاحقا أنها تعيش في عالم الخيال وأحلام اليقظة، وإن لم تدرك متى حدث هذا الأمر، ومن المعروف في علم النفس أن أحلام اليقظة تؤدي دورا مهما في طور الطفولة، لأن أنا الراشد تساوره الحاجة إلى التركيب وتهميش المعطيات المتضادة، كما أن الرابط الذي يربط الراشد بالواقع أقوى من نظيره لدى أنا الطفل، فلا تعود آلية الخيال تحظى بذلك التقدير الذي كانت عليه في مرحلة الطفولة، رغم ذلك نجد سحر لا تتوقف عن آلية الخيال وتلجأ لآليات دفاعية أخرى.

فالإشباع عن طريق آلية الخيال عند أنا الراشد يؤدي به إلى حالة من الذهان، فالأنا التي تسعى عن طريق إنكار الواقع إلى "الإفلات من طوق الحصر (....) وإلى تجنب العزوف عن الدوافع الغريزية وإلى تحاشي العصاب ينتهي به الأمر إلى الإفراط في استعمال هذه الآلية"[27]

إن توظيف آلية الخيال يؤدي إلى تشويه علاقات الأنا بالواقع، بشكـل يبعث على القلق، وتتكرر حالات الانفصام التي تعيشها الشخصية، فهي أحيانا "فتاة صغيرة وأحيانا أخرى امرأة مسربلة بغلالة سوداء"[28]

وهي لا تخرج من أحلام يقظتها وخيالاتها إلا على صوت الأم، خاصة حين تقف أمام النافذة لتشـــاهد ذلك المبنى المهجور بسبب الحـــرب، فيتراءى لها شبح رجل يخرج من المبنى، ولكنها لا تكتفي بهذا بل تتخيل له عائلة وزوجة وأطفال يلهون بكل حرية في الردهة.

---

[25]-الرواية، ص 08.

[26]- الرواية، ص 23.

[27]- فرويد، آنا: الأنا وآليات الدفاع، ص 404.

[28]-الرواية، ص 08.

كمـا تظهر آلية الخيال في استحضار سحر للشخصيـات الرجـالية في فترة مراهقتهـا، واكتشاف الشهوة، فنقرأ في الرواية "فرافقني في فراشي كل ليلة، كنت أتعرى أمامه وأتحسس جسدي بيديه، حتى أني أطلقت عليه اسما، وتركته يصحبني كل مرة إلى مكان مختلف، حسب مشيئته، التي لم تحصل في أي مكان سوى أوهامي"[29]، وتعددت الشخصيات الرجالية التي كانت تتخيلها سحر بحثا عن الحب والعطاء والرومانسية والأحلام المثالية "والآن أنا أسأل نفسي كم من الرجال عرف خيالي، عشرة أو أكثر؟ لم أعد أدري"[30]، ورغم أن هذه الشخصيات متخيلة ولا توجد في الواقع إلا أن سحر كانت واقعة تحت سلطتها تشعر بقوتها وشراستها.

وعلى الرغم من أن آلية الخيال والتخيّل تكون في أوج قوة اشتغالها في مرحلة الطفولة، إلا أنها يمكن أن تستمر مع الراشد المضطرب نفسيا، مثلما نجده مع سحر التي بقيت تعيش استيهاماتها حتى بعد ارتباطها بسامي، فنقرأ "وفي استيهاماتي صرت أدور دوما حول نفسي (....) ولشدة التصاقي بنفسي، كان ذاك الآخر يتحول فجأة إلى حقيقة..."[31]

فالعلاقة المتوترة مع سامي، وخاصة العلاقة الجنسية التي لم تكن مرضية لسحر أدّت بها إلى العودة لتوظيف آلية الخيال وتخيل شخصيات ذكورية تثير شهوتها وتمنحها اللذة.

فكانت تختلق شخصيات وهمية لتضحك وتتهكم على الآخرين في سرها، "فهربت إلى الخيال باحثة عن وجوه جديدة"[32]، وبقيت آلية الخيال "فتشبثت بالخيالات والأوهام الغريبة"[33]

نلاحظ أن آلية الخيال والتخيل ساهمت في تشكيل شخصية سحر وتكوينها، نقرأ في النص "بعدما فقدت اتصالي مع ذاتي أي مع الخيال الذي بدأ رقيقا في الطفولة، ليتسع مع الوقت ويأخذ أشكالا إيروسية حادة"[34]، تبدأ آلية الخيال في الطفولة بشكل

---

[29]-الرواية، ص 29.

[30]-الرواية، ص 30.

[31]-الرواية، ص 44.

[32]-الرواية، ص 62.

[33]-الرواية، ص 105.

[34]-الرواية، ص 123

هادئ، ولكن اذا استمرت حتى مرحلة الرشد فإنها تأخذ طابعا حادا وهذا ما حدث مع سحر.

ب- آلية النكوص(Regression méchanism):

يُستخدم هذا المصطلح للدلالة على "التردي أو الضعف الذي يصيب المهارات المكتسبة والذاكرة والوظائف العقلية والجسدية الأخرى، والنكوص هو أحد الآليات الدفاعية Defense mechanisme التي تحدث بصورة مرضية يتم فيها الرجعة إلى مستوى عقلي أو سلوكي سابق مثل العودة للسلوك الطفولي"[35]

من أهم الآليات الدفاعية التي يلجأ إليها الأنا بصورة دائمة في مواجهة الهو، ويمكن لبعض الأحداث النفسية أن تكشف عن طبيعتها الارتجاعية وتميط اللثام عن الصراع القديم الذي تخفيه وراءها، ويرى فرويد أن آلية النكوص متعلقة بعودة الدوافع الغريزية إلى مرحلة جنسية سابقة نظرا لمعارضة الأنا، ويقوم النكوص بنفس عمل آلية الكبت، بالرغم من أنه لا يجعل الكبت أمرا غير ضروري[36]

ويُقصد بالنكوص "العودة إلى مرحلة الطفولة، أي العودة لممارسة السلوك الطفلي وكل ما يشتمل من رغبات وحاجات بعضها جنسي"[37]

كانت سحر تعود إلى طفولتها "وأنا في بداية العقد الثالث من عمري لم أعد أذكر تماما أين تركت نفسي"[38]

كما تتذكر الزيارات إلى بيت الجد يوم العيد، هذا اليوم الذي لم يكن رمزا للفرح دوما، فمع والد مقاطع للمناسبات الدينية لإثبات إلحادهوشيوعيته الضائعة وأحلامه الاشتراكية الخائبة، وأم صارمة كانت سحر وإخوتها تحاول أن تعيش أجواء العيد "كان جدي يدّس قطعا نقدية في جيوبنا ويقدم لنا الحلوى التي كنا نسارع إلى التهامها قبل انصرافه خوفا من أن تحرمنا منها أمي"[39]

تعود سحر في كل مرة إلى ذكريات الطفولة وزيارات القرية هربا من الحزن والألم والتوتر الذي أصبحت تعانيه.

---

[35]- الشربيني، لطفي: معجم مصطلحات الطب النفسي، ص 155.

[36]- فرويد، سيجمند: الكف والعرض والقلق، ص 146.

[37]- خير الله عصّار: مقدمة لعلم النفس الأدبي، ص 89.

[38]- الرواية، ص 11.

[39]- الرواية، ص 13.

ت- آلية الصراع النفسي(Conflict mécchanism):

ويعني به "التعارض بين محتويات العقل الباطن من رغبات وأفكار تنشأ عنه حالة من القلق حتى يتم حسم الصراع بالاختيار، وهناك أنواع من الصراع تبعا للعناصر التي يحدث بينها التعارض"[40]

نجد هذه الآلية في شخصية الأم التي كانت دوما غاضبة ومنفعلة، "أشبه بامرأة في آن الحيض، مضطربة الأعصاب جاهزة للانفجار"[41]

ففي حالة الصراع يشعر المرء بالمرارة والغضب والحزن بحسب الموقف ونوع الشخص، لذلك كانت الأم تعيش صراعا دائما بسبب إهمال زوجها، الذي تركها للخذلان والوحدة، فكانت "تختلج وتئن في نومها المتقطع بالأرق، وتقع ضحية نوبات الهلع"[42]، هذا الصراع الذي هدد صحة الأم النفسية وعلاقاتها الاجتماعية بالخطر، تقع الأم ضحية صراع بين رغباتها وبين محاولتها حفظ ماء وجهها، والحفاظ على صورة العائلة المثالية، فقد كانت "مسكونة بشعور دائم بالأسى والغضب، ورغبة شرسة بأن تحفظ ماء وجهها، وصورة العائلة المثالية والمترابطة والغائب عنها في العمق، أي نوع من التواصل تماما كما زال الاتصال الجسدي الضئيل بينها وبين والدي"[43]، ورغم أن الأم لم تكن بكل تلك الخشونة والتسلط، إلا أنها كانت تحاول "أن تستعمر كل فضاءات الحرية، ليس للاستمتاع بها ولكن لزهق روحها"[44]

كما يظهر الصراع في شخصية سحر المضطربة والواقعة تحت سيطرة الأب والأم "تلبسني أبي، وأمطرت في نفسي مصائب أمي، وشهوة عمتي سامية المدفونة، فكيف احتملت هذا الكم الهائل من الأشخاص في داخلي؟"[45]، يعتمل في نفس سحر صراع بين سلطة الأب وغضب الأم ووحدة العمة وغيرها من الشخوص الأخرى كهالة وربيع، هذا الصراع الذي سينتهي بتعرض سحر لانهيار عصبي ومحاولتها الانتحار، وفي غرفة الطوارئ

---

[40]- الشربيني، لطفي: معجم مصطلحات الطب النفسي، ص 33.

[41]- الرواية، ص 12.

[42]-الرواية، ص 22.

[43]-الرواية، ص 22.

[44]-الرواية، ص 22.

[45]-الرواية، ص 110.

تحاول أن تصرخ وتطرد كل الشخصيات التي تلبستها "أريدكم أن تخرجوا مني جميعا، أريد أن أكون أنا"[46]

وفي حالتها تلك تخلى عنها سامي ورأت فيها عائلته مجرد امرأة مجنونة، حاول والداها التكفير عن ذنوبهما الحزينة والمشتتةاتجاهها واتجاه العائلة، بالبحث عن علاج لسحر واحتضان ابنها طارق ودنيا.

كما كانت سحر تعاني صراعا نفسيا بين عالم الأب وعالم سامي، فقد كانت تحاول أن تجد ضفة أمان بينهما، هذا الصراع الذي قادها إلى ربيع بحثا عن الأمان وبحثا عن إشباع شهوة رفضت الاعتراف بها إلا في مخيلتها، "سامي أقنعني بجدوى ضربي، وربيع بقدري كعشيقة، فلا يعود الذل يثير في أعماقنا حتى النقمة، بل إحساس بأننا الفائض، وبأننا لا نستحق الوجود"[47]وفكرة أنها لا تستحق الوجود دفعها لمحاولة الانتحار بتناول الأقراص المهدئة.

كانت سحر تشعر أنها واقعة تحت غضب سلطة ذكورية تمثلت في والدها وزوجها وعشيقها، فلم يساندها أحد أو تحمّل مسؤولية الدفاع عنها، كما كانت تشعر بمشكلة الانتماء، وهاجس قبول الآخر المختلف، والاندماج في مجتمع ومدينة تكدّس الغبار على تربتها وأبنيتها وآثارها.

لم تكن سحر وحدها من تعاني من صراع نفسي، بل كذلك صديقتها هالة التي كانت في صراع مع الحياة ومع الألم منذ طفولتها، أرادت التغلب على الألم بعناد وثبات، "كان عليها أن تحارب بأسنانها وأظافرها ضد سوء الحظ كي لا تسحق في ميدان الحياة كما علمتها التجارب"[48]، وقد واجهت هالة هذا الصراع بالسخرية والتهكم على واقعها ومشاهدته من مسافة نائية، ساخرة من الأقدار، فكانت "تستبدل كل شيء بالهزل والاستهزاء"[49]

وهذا ما جعل هالة تقرر أن تحيا بأقل ما يمكن، أن تعيش وتعتني بنفسها وبابنها، ولعل هذا ما جعل سحر تتلبس شخصية هالة حين تعرضت لانهيار عصبي، قوة شخصية هالة في مواجهة صعوبات الحياة في مقابل شخصية سحر الضعيفة والخانعة،

---

[46]-الرواية، ص 198.

[47]-الرواية، ص 123.

[48]-الرواية، ص 133.

[49]-الرواية، ص 141.

وعندما قررت سحر المواجهة انفصمت عن شخصيتها الضعيفة وتلبست بشخصية هالة القوية.

ث- آلية الكبت(Repression méchanism):

تعد من أبرز الآليات الدفاعية التي خضعت للبحث والدراسة، ويمكن الحديث عن الكبت عندما تغيب الدوافع الغريزية التي كان من المتوقع ظهورها في الأنا، في سياق سعيها إلى الإشباع، فتجد أن المنفذ إلى الأنا قد سُدّ عليها ومُنعت من الظهور، بمعنى أنها كُبتت وتم عزلها، ولآلية الكبت مكانة استثنائية بين الآليات، باعتبار أنها أول طريقة دفاعية ركّز عليها فرويد في دراسته للقلق، وكان يخلط بين مصطلحي الكبت والدفاع في الاستعمال، إلى أن وجد أنه من الأفضل استعمال مصطلح "الدفاع" "كوصف عام لجميع الحيل التي يستخدمها الأنا في حالات الصراع التي قد تؤدي إلى العُصاب، بينما نحتفظ باصطلاح "الكبت" لطريقة الدفاع الخاصة"[50].

ويقصد فرويد هنا بطريقة الدفاع الخاص دراسته لعرض القلق، وتعمل آلية الكبت على استبعاد مثيرات القلق، كالدوافع الغريزية، والانفعالات والأفكار المخزية والمؤلمة، وطردها إلى اللاشعور، إلا أن عملية الاستبعاد هذه ليست تامة، وإنما تم الاحتفاظ بها في اللاشعور وتبدأ بالتعبير عن نفسها في صورة أحـلام أو أخطــاء أو شعور بالضيق وإحســاس بالذنب وغيرها، "فالشحنات النفسية الجنسية الخاصة بالدافع الغريزي المكبوت إنما تستخدم بطريقة أخرى غير التحول إلى القلق وغير التفريغ على صورة قلق، كما يشاهد بوضوح جدا في الهستيريا التحولية"[51]

ويكون الكبت "من خلال دفع الأفكار والمشاعر من العقل الواعي، والكبت الأولي يكون بكبح الأفكار قبل أن تصل إلى الوعي، أما الثانوي فيكون بالتخلص من الأفكار التي توجد في حيز الوعي، والأشياء التي يتم كبتها لا تُنسى بل يتم تخزينها في العقل الباطن"[52]

ووظفت شخصيات هذه الرواية آلية الكبت، كشخصية الأم التي قامت بإنكار مشاعرها وكبتها، فقد "طوت أحاسيسها وستفتها جنبا إلى جنب"[53]، فبعد أن وجدت صدا وإهمالا من زوجها رغم محاولاتها العديدة لاستمالته، ورغم كل المجهودات التي بذلتها لم تجد تجاوبا، ما أدى بها إلى كبت رغباتها ودوافعها الجنسية خاصة، فقد أفقد

---

[50]- فرويد، سيجمند: الكف والعرض والقلق، ص 144.

[51]-المرجع نفسه، ص 143.

[52]- الشربيني، لطفي: معجم مصطلحات الطب النفسي، ص 157.

[53]-الرواية، ص 19.

الكبت الأم القدرة على السيطرة على شطر من حياتها العاطفية، وباتت علاقتها بعائلتها وبأنوثتها بعيدة عن متناول أي صياغة شعورية لاحقة، فالكبت يفعل "فعله على نحو أكثر جذرية، بمعنى أنه يستطيع أن يسيطر على بعض الحفزات الجامحة التي تبقى الطرائق الأخرى بإزائها عديمة الفعالية"[54].

ولقد ظفت الأم التي عاشت إهمالا من زوجها آلية الكبت لرغباتها وغرائزها، ولأن العلاقة بين الآليات الدفاعية والأعراض المرضية وضّحها فرويد ومن جاء بعده، فإن الأم أصابتها نوبات من الهستيريا بسبب توظيفها لآلية الكبت، امتلكت الأم قدرة رهيبة على تفريغ الأشياء من فحواها والتعبير الوحيد الذي "شهدناه منها كان النوبات الهستيرية التي أصابتها دون سابق إنذار"[55]

كما تظهر آلية الكبت في شخصية الأب الصامت دوما، وكذلك ربيع الذي كبت مشاعره ورغباته وخرج منتصبا منتصرا على آلامه، ولكن "خلف كل ذاك الجاه والانتصار اختبأ انكسار، انكسار الولد الذي صار رجلا قبل الأوان"[56].

وكما لاحظنا في تعريف آليات الدفاع، وارتباطها بالأمراض النفسية، سنجد سحر التي وظفت كثيرا آلية الكبت تصاب بالهستيريا وكيف أصبحت امرأة "مكبلة بعناية للعبة غنية من الأدوات السادومازوشية، التي تستقبل عقابها كونها تملك مخيّلة غير مشروطة، ممنوعة عن الحي والمدينة"[57]، ستصاب سحر بانهيار عصبي وتحاول الانتحار، وقصد مساعدتها على الشفاء يُقترح على والديها مساعدتها على السفر لترتاح وتُشفى، ولكن يبدو أن سحر حصل لها انفصام في الشخصية فتجيب مسؤول الأمن "أدعى هالة ولا أريد السفر، لدي ابنة تدعى فرح في انتظاري"[58].

ج- آلية العدوان (Aggression méchanism)**:**

يعرّف معجم مصطلحات الطب النفسي العدوان بأنه "سلوك موجه لايذاء الغير عمدا، ويرتبط العدوان والعنف ببعض الحالات المرضية مثل اضطرابات الشخصية المضادة للمجتمع والاضطرابات الذهانية"[59]

---

[54]- فرويد، آنا: الأنا وآليات الدفاع، ص 377.

[55]-الرواية، ص 12.

[56]-الرواية، ص 115.

[57]-الرواية، ص 159.

[58]-الرواية، ص 199.

[59]- الشربيني، لطفي: معجم مصطلحات الطب النفسي، ص 05.

تتضمن هذه الآلية "التعبير عن العدوان المباشر أو غير المباشر والذي يساعد في التحكم أو السيطرة على التهديدات الخارجية التي يمكن إدراكها، أو إخفاء الصراعات الداخلية التي تكون مؤلمة بدرجة شديدة ولا يمكن مراجعتها شعوريا، وينبغي النظر إلى العدوان على أنه ميكانيزم دفاعي فقط إذا انطبقت عليه معايير معينة، مثل كونه غير مناسب أو مبالغا فيه ولم يتحدد عن طريق الاضطرابات العضوية أو الاستفزازات الزائدة"[60]

تظهر هذه الآلية في شخصية الأم وعلاقتها المتوترة بأبنائها وتظهر في صراخها على أبنائها وتعاملها معهم كرقيب يمنعهم من اللعب ويكتم أصواتهم، فنقرأ في الرواية "سرعان ما كنا نبدأ بالشجار أنا وإخوتي، فتصرخ بنا والدتي "اسكتوا، أتظنون أنكم وحدكم في هذه الغرفة؟ كفوا عن استخدام هذه اللهجة، أكاد أختنق من ضجيجكم" (....) تتحول فجأة إلى رقيب يطل علينا ليكتم عنا اللعب"[61].

إن صراخ الأم على الأولاد وإحساسها بالاختناق من أصواتهم يُعتبر رد فعل مبالغا فيه، وهي إذ تمارس سلطتها بالصراخ ومنع الأطفال من اللعب تمارس آلية دفاعية لتحويل القلق الذي تشعر به، ويُنظر إلى الأشخاص الذين يستخدمون آلية العدوان في علاقاتهم مع الآخرين إلى أن الهجوم هو أحسن وسيلة للدفاع، ولكن علماء النفس ينظرون إلى هذه الآلية على أنها أسلوب دفاعي بدائي، لديه القدرة على تدعيم تقدير الذات عن طريق خلق خداع للسيطرة والتحكم، فالأم التي لا تستطيع التأثير في زوجها ولا إثارة انتباهه تحوّل مشاعرها المضطربة إلى صراخ على أطفالها ومحاولة التحكم بهم.

وعندما سألت دنيا والدتها سحر عن معنى الخيانة، تصفعها هذه الأخيرة بشدة، وتصرخ بها أن لا تكرر هذه الكلمة، وهذا العدوان من سحر اتجاه دنيا سببه إحساس سحر بأن خيانتها لسامي مع ربيع انكشفت، رغم أن سؤال دنيا الطفلة المفعمة بالبراءة والسلام، كان سؤالا بريئا سمعته في التلفاز، إلا أن سحر أحست أن السر الذي تخفيه على وشك أن يعريها، فمجرد سؤال عن معنى الخيانة "أشعرني أن ثوبي انزلق عن جسدي وأني بت عارية"[62]، تعامل سحر مع دنيا جعلها تشعر بالأسى وأنها بدأت تتحول إلى نسخة من والدتها في تعاملها مع الصغيرة.

---

[60]- إيلفيتش وجليسر: قائمة ميكانيزمات الدفاع، ص 15.

[61]-الرواية، ص 25.

[62]-الرواية، ص 151.

كما نجد شخصية سامي توظف آلية العدوان في علاقته بسحر، فنجده خوفا من فقدانها يمارس عليها شتى أصناف العنف والعدوان المادي والمعنوي، فسلبها هويتها، وعمل على تحقيرها وإهانة عائلتها، لأنه أدرك أن سحر بشخصيتها الضعيفة والمترددة لا يمكنها أن ترد على ذلك "كان يروقه أن يراني متألمة من ذويّ، استعمل ألفاظا نابية بحق والديّ، وكنت عاجزة عن مواجهته أو إجابته، لأني كنت في تلك اللحظات مسلوبة الأهل، كطفل يتيم، وكان يرصد تحركاتي بتعجرف ويقترب لمضاجعتي، كأن ذاك الجسد الذي لا مأوى له سواه، فأرضخ فاقدة أية لذة"[63]

يبدو سامي مستغلا لضعف شخصية سحر التي تعتبر شخصية مازوخية(Masochism) ترضى بالعنف الواقع ضدها من سامي الذي يظهر شخصية سادية(Sadism) يقوم بضرب سحر ثم يستمتع بممارسة الجنس معها.

كما تظهر آلية العدوان في سخرية سامي من والد سحر "تحيّن الفرصة للسخرية من أبي الذي كـــان قصير القامة بعض الشيء، منخراه أشعران ومظلمان مثل المغاور وحاجباه كثيفان، أحدهما مرفوع دوما كما لو أنه في حالة شك أو سخرية هزيلة، وكنت أسكت على مضض، فإن أبديت امتعاضا سأدخل دهاليز الأحاديث المتشنجة التي تعمّد إثارتها"[64]

إن سامي يتعمد السخرية من سحر وعائلتها، وهو هنا يوجه مشاعره السلبية وإحساسه بالنقص بشكل عدواني اتجاه سحر التي كان يخاف فقدانها رغم ذلك، فأصبحت امرأة بلا ملامح ولا رائحة.

وفي هذه الرواية تحاول الكاتبةإبراز سادية الرجل، من خلال الشخصيات الذكورية في الرواية، فالأب يعذب الأم بغيابه الفعلي والروحي عن المنزل وإهماله المستمر لها، وكذلك سامي الذي يضرب سحر ثم يضاجعها، أما ربيع فإنه يقرف من العاهرات ويعنفهن ولكنه رغم ذلك يضاجعهن، "كان هذا الرجل يضربني وها هو الآن يضاجعني، وفي كلا الحالتين لم أعد أشعر سوى بالقرف والاشمئزاز"[65]

[63]-الرواية، ص 52.

[64]-الرواية، ص 52.

[65]-الرواية، ص 122.

كما نجد سحر التي تقبلت ضرب سامي لعدة سنوات تتساءل إن كان قبولها هذا "دافعا مازوشيا ما دفعني إلى العذاب"[66]، ومن المعروف أن المازوشية هو عنف وعدوان يتوجه ضد الذات، وهو أكثر ارتباطا بالحياة الجنسية للشخصية.

د- آلية الإحباط (Frustration méchanism):

الإحباط وهو مصطلح "يصف الحالة النفسية عند شعور خيبة الأمل لوجود عائق يحول دون تحقيق غرض"[67]

فالإحباط حالة نفسية تتميز بمشاعر الخيبة واليأس بسبب إعاقة النشاط المتجه نحو هدف سواء "بإيقاف هذا النشاط فعلا أو التهديد بإيقافه أو الإيحاء بأن هذا النشاط مآله إلى الهزيمة والخيبة، وكل انسان يتمتع بدرجة من تحمل الإحباط دون أن تظهر في سلوكه أنماط من الاختلال والاضطراب"[68]

وتظهر آلية الإحباط في شخصية الأم التي كانت تغرق في حديث نفسي طويل ترثي فيه نفسها، وتتحسر على ما انتهت إليه حياتها، وكانت تشعر أن مصيرها كان سيكون أفضل من البؤس الذي أحاط بها، فتقول "شفتي يا سعاد، طلعتي ايد لورا وايد لقدام، لا مال ولا دلال"[69]

كانت سعاد تحمل آمالا كبيرة وهي تتزوج بالمثقف الذي حسدها الجميع على الارتباط به، فقد أُعجبت به وهو يتصفح جريدة أجنبية، فتعمدت إثارة انتباهه، وتظاهرت أنها مثقفة كذلك ومهتمة بالشؤون الدولية وأخبار الثوار، ولكنها لم تكن تعلم "أن حياتها مع ذلك الرجل ستتحول إلى أرق مزمن، وأن الضيق سيضغط على حنجرتها لتستعيد الحزن الذي سكنها من شعرها حتى أخمص قدميها"[70]

نلاحظ هنا بوضوح مشاعر الخيبة واليأس والضيق والحزن الناتجة عن حالة الإحباط التي تعاني منها الأم، خاصة في عبارة "طلعتي إيد لورا وإيد لقدام" بمعنى أنها لم تحصّل شيئا من هذه العلاقة التي كانت سلبية ومرهقة، فقد أغراها منظر المثقف الذي يحب الجلوس منفردا في المقاهي لساعات طويلة، والذي يتعامل مع النوادل معاملة السيد المتشدد وكثير الطلبات، فنظرت إليه مثل كل أهل الحي كأنه "السيّد الغني الذي

---

[66]- الرواية، ص 196.

[67]- الشربيني، لطفي: معجم مصطلحات الطب النفسي، ص 62.

[68]- خير الله عصّار: مقدمة لعلم النفس الأدبي، ص 86.

[69]- الرواية، ص 26.

[70]- الرواية، ص 28.

يجب أن يخدموه بتواضع وتقدير، وخشية وإخلاص وتسامح من غير حدود لسبب واحد أنهم لم يكونوا قادرين على الغوص في أعماقه ولأنه بدا دوما منهمكا في ما قد يفوق قدرتهم على الاستيعاب"[71]

ولكن سعاد (الأم) لم تجد ذلك الرجل السيد الغني القوي، المثير للاعجاب، بل وجدت رجلا صامتا منفصلا عن واقعه قضى عقدا كاملا في الوهم والبكاء على الأطلال، توقف الزمن عنده لحظة انهيار الاتحاد السوفياتي وانهيار جدار برلين، فانسحب من الحياة تاركا سعاد تعيش آلامها وتعاستها وتواجه الحياة بمفردها.

وتمثل شخصية الأب شخصية إشكالية، ومعقدة نفسيا يوحي صمته المستمر بشعوره بالإحباط، لعدم تحقيقه أي هدف من أهدافه خاصة بالنضال الاشتراكي، فقد بقي الظلم مسلطا على العمال وبقيت شبكـات المصالح متحكمة بالسلطة، وانتصرت الرأسمالية المتوحشة، وانهار الاتحاد السوفياتي، وانهار جدار برلين، هذا الانهيار الذي يُعتبر لحظة فاصلة في حياة الأب "كأن كل السنين التي أتت بعد ذلك لم تكن أكثر من وهم حوّل كل ما اتصل به إلى سراب أيضا"[72]، ولأن الأب لم يستطع أن يتزوج مناضلة مثله، ولم يعترف أحد بألمعيته، وأفل حلمه الكبير "غاب أبي عن العيش مستكبرا على القدر، عاجزا عن الاستمتاع بأي شيء سواء أبوّته أو عمله أو حتى مضاجعة زوجته، تحوّل قضيبه إلى عضو منسي وعصّي على الانتصاب"[73]

ويظهر بهذا وجود علاقة بين الإحباط الذي عاشه الأب واضطرابات الشخصية التي يعانيها.

ذ- آلية الإسقاط(Projection méchanism)**:**

يعرف معجم الطب النفسي الإسقاط، أو إلقاء الأفكار على الغير بأنه "من الآليات الدفاعية النرجسية غير الناضجة، ويعني أن يقوم الشخص بإسقاط المشاعر والصفات الداخلية غير المقبولة لديه على الآخرين وتوهم أنها خارجية يتصف بها غيره وليست داخله، والاشتقاق من Project وتعني تسليط الضوء ليظهر الصورة"[74]

---

[71]-الرواية، ص 38.

[72]-الرواية، ص 38.

[73]-الرواية، ص 39.

[74]- الشربيني، لطفي: معجم مصطلحات الطب النفسي، ص 144.

وفي هذه الآلية الدفاعية "يتم إطلاق صفة النية السلبية على سلوكيات وأفعال الآخرين دون وجود دليل صريح أو واضح ثم تُستخدم هذه الصفة لتبرير الأفكار العدوانية والسلوك والمشاعر نحو الآخرين"[75]

فالإسقاط يتمثل في نسبة أفكـــار ومشاعر ومخاوف تنتمي إلى الشخص ذاته إلى الآخرين، ويُلاحظ أن تعريف الاسقاط "يستبعد نسب أو ايعاز السمات أو الصفات غير المرغوب فيها أو السلوك للآخرين عندما لا تقترن هذه الصفات بالعدوانية أو النبذ"[76]

وفي الأدب يسقط الأديب أفكاره ومشاعره في نصوصه وعلى شخصياته بأساليب مختلفة، وفي نص "أنا، هي والأخريات" تختار سحر دراسة الهندسة الداخلية وهنا إسقاط لشعورها بالإشمئزاز من منزلهم الفارغ من الأثاث، فتقول سحر "ربما كان خياري أن أدرس الهندسة الداخلية الدليل القاطع على اشمئزازي من منزلنا الفارغ الأثاث"[77]، هذا المنزل الذي يثير مشاعر القسوة والجفاء، الذي لم تتغير فيه قطعة أثاث واحدة منذ زمن بعيد، وهنا أيضا إسقاط لمشاعر الأم المتصلبة على ديكور المنزل، فهي اعتادت الحزن كنمط عيش وأسقطت هذا السلوك في ترتيب المنزل "كانت تعتمد سلوكا لامباليا، لتؤكد لي أن قناعاتها راسخة وليس من إمكانية لتغيير قطعة أثاث واحدة في المنزل، لم تكن تحتمل أن تكون موجودة وسط أشياء جميلة، فذاك قد يفجّر كل الحزن الذي تكدّس في قلبها، حتى آمنت به كنمط عيش"[78]

وكما نلاحظ في هذا النص، فإن الأم أسقطت مشاعرها السلبية ومخاوفها وحزنها على ديكور البيت، ورفضت أن تحدث فيه أي تغيير أو تجديد، لأنه عبارة عن انعكاس لما يحدث في داخلها.

كما نجد آلية الإسقاط في رسم سحر للمدفأة، فشعور الشخصية بعدم الأمان وبرودة العلاقات بين أفراد الأسرة، أسقطت هذا الأمر على حاجة المنزل إلى مدفأة، فنقرأ في النص "كنت أمضي ساعات طويلة وأنا أرسم ديكورا مختلفا لمنزلنا، فأملأ المكان بالألوان، وأصمم مدفأة حطب وأبحث عن الموقع الملائم لها، لم تكن المدفأة تقتصر فقط على احتياج الأسرة إلى الدفء والحماية من برودة الشتاء القارصة، وإنما كان لها أهمية أكبر بكثير، وهي الدفء العائلي، فالتجمع والالتفاف أمامها للاحتماء من زمهرير

[75]- إيلفيتش وجليسر: قائمة ميكانيزمات الدفاع، ص 16.

[76]- المرجع نفسه، ص 17.

[77]-الرواية، ص 31.

[78]-الرواية، ص 31.

الليالي الباردة كان سيساعد على تكوين أجواء حميمة، باتت الحاجة إليها ضرورة في ظل برودة علاقات عائلتي الخاوية"[79]

نلاحظ من هذا المقطع كيف أسقطت سحر حاجتها للدفء العائلي على حاجة المنزل لمدفأة تدفئ أرجاءه وتجمع شمل عائلتها.

كما تسقط سحر مشاعرها السلبية على ذاتها، فترى نفسها قبيحة جدا، ليست امرأة بلا ملامح فقط، ولكنها كانت تشعر أنها تتحول إلى "شيء داكن ومهترئ، كنت أتضخم في نفسي حتى الانفجار، وأصبح كتلة من البشاعة تغرق في موجة من الازدراء"[80]، إن إحساس سحر بالدونية والنقص، أدى بها إلى إسقاط هذه المشاعر السلبية على جسدها، فكانت ترى صورتها حسب الظروف والوجوه التي تصادفها.

كما نجد آلية الاسقاط في شخصية سامي الذي يتهم سحر بصفات لا توجد فيها ولكن توجد فيه "بدأ بتعداد مساوئ ليست فيّ، إنما فيه"[81].

وفي علاقتها بربيع تسقط سحر رغبتها في إنقاذ ذاتها على ربيع وترغب بانقاذه من أحزانه "أليس ذلك ما نفعله عندما نعجز عن إنقاذ ذواتنا نعكس رغبتنا على مرآة تدعى الآخر ونحبه بذاك القدر، أملا بأن نمحو ما ترسخ في أذهاننا من قسوة"[82].

ر- آلية التعويض(Compensation méchanism):

وهي آلية دفاعية يلجأ إليها الفرد عندما يعاني من مشاعر النقص والحرمان في إحدى النواحي الحياتية، وذلك من أجل التغلب على الشعور بالدونية، والوصول إلى تقدير الذات وتخفيف درجة القلق، ويعرّف معجم الطب النفسي التعويض بأنه "الحصول على المقابل للضرر"[83]

فآلية التعويض تتمثل في محاولة الفرد تعويض فشله أو عجزه الحقيقي أو المتخيل في ميدان آخر مما أشعره بالنقص، ونجد في هذا النص آلية التعويض في شخصية سحر التي ارتبطت بسامي ورأت فيه تعويضا عن كل مشاعرها السلبية وآلامها فتقول "ورحت أفكر كيف تضحك لنا الحياة لتمنحنا من حيث لا ندري تعويضا عن كل ما مضى، كان سامي الآخر الجديد، الآخر الضد لكل العبثية الشعواء التي لم أعرف

---

[79]_الرواية، ص 33

[80]-الرواية، ص 50.

[81]-الرواية، ص 90.

[82]-الرواية، ص 116.

[83]- الشربيني، لطفي: معجم مصطلحات الطب النفسي، ص 31.

سواها"[84]، هكذا كانت سحر ترى سامي في بداية ارتباطهما، تعويضا عن حياتها السابقة بآلامها وأحزانها وتهميشها، ولكن يبدو أن هذا التعويض كان مؤقتا، لأن سامي شخصية مضطربة نفسيا وسنرى التغيير الذي سيطرأ على علاقته مع سحر التي ستتحول بسبب سامي إلى نسخة من أمها، وستبحث عن تعويض آخر للضرر الذي أصابها مع سامي، وستجد هذا التعويض في العيش عشيقة سرية لربيع.

كما نجد أن سحر تبحث في سامي عن تعويض علاقتها بوالدها، وهي علاقة باردة متوترة مع أب غائب في حضوره، فتقول سحر عن علاقتها بسامي "أعرف أني تمسكت به من موقع الباحثة عن اعتراف، اعتراف لم أحصده من والدي، وكان ذلك الاعتراف أهم بكثير من عواقبه"[85]، فكأن سحر تبحث عن تعويض لمشاعر أبوية وعائلية مفقودة.

كما نجد آلية التعويض في شخصية سحر التي تقرر أن تلبس ثيابا مختلفة، مزينة بشكل غريب وأن تهتم بأحذيتها وعطورها وأن تهتم بالفن والموسيقى، فكأن هذه الأمور تعويض عن الضرر والمشاعر السلبية التي عاشت معها منذ طفولتها.

كما يمكن الحديث عن آلية التعويض والتحويل في شخصية الأم التي لم تستطع مواجهة زوجها وتفكيره الشيوعي فتهجمت لفظيا على الفتاة الروسية التي تزوجها ابن الجارة، "عندما تزوج ابن إحدى جاراتنا من فتاة روسية، وجدت الفرصة سانحة لوصمها بكل النعوت التحقيرية على مسامع الزائرات"[86].

فكأن الأم وجدت في الفتاة الروسية فرصة للتفريغ وسب التوجهات الاشتراكية والشيوعية التي كانت سببا في ما وصل إليه حال زوجها، وحالها معه، فعوض التهجم على زوجها الذي أهملها بسبب صدمته من انهيار الشيوعية، وجدت الفرصة سانحة في التهجم على الفتاة الروسية التي كانت في تلك اللحظة تمثل المعسكر الشيوعي المنهار.

ويمكن الحديث عن آلية التعويض عند أفراد عائلة سامي، الذين كانت لديهم عقدة نقص اتجاه سحر عوضوها بالسخرية من سحر وعائلتها، "يهينني عمدا على مسمع من والدته لترتسم على شفتيها ابتسامة نصر"[87].

ز- آلية الإنكار(Denial méchanism)**:**

[84]-الرواية، ص 42.

[85]-الرواية، ص 51.

[86]-الرواية، ص 102.

[87]-الرواية، ص 163.

جاء في معجم الطب النفسي أن آلية الإنكار "من الآليات الدفاعية والحيل التي يتم فيها إنكار أمور حقيقية لتجنب ما يرتبط بها من مشاعر أليمة"[88].

فمن خلال هذه الآلية يحاول الفرد بناء أوهام قائمة على إنكار الواقع، ومن ثمّ التصرف والتعامل مع الواقع وفق هذه الأوهام الذاتية، بغض النظر عن مدى تناقضها مع الواقع.

ونجد هذه الآلية في شخصية سحر، الفتاة المراهقة التي أنكرت مشاعرها اتجاه شقيق صديقتها سوسن، بسبب خــوفها من أن يتوقف والدها عن حبها، فتقول "حاول أن يومئ لي بأن أتوقف وأكلمه، ولكن خــوفي كان أقوى مني، تملكــني الرعب من ألا أطيع أبي، فيتوقف عن حبي، بعيدا ركضت عن الشاب الذي رغبت بالتودد إليه..."[89].

نلاحظ أن سحر التي وعدت والدها ألا ترى مجددا صديقتها سوسن وشقيقها الساكنين بالقرية، عندما تصادف شقيق سوسن في الطريق تغيّر طريقها وتركض بعيدا عنه، وهي إذ تنكر رغبتها في التودد إليه فإنها كانت تحت سيطرة مشاعر الخوف من الوالد ومــن فقدان حبه، ونقض وعدها له، لذلك نجدها ترفض الحديث مع شقيق سوسن، بل وتغير طريقها وتركض بعيدا عنه.

فنقرأ في النص "الهرب هو الوجه الآخر للرغبة، ركضــت بعيدا عما أردت بسبب الخوف، لا بل نفيت ما أريد من حياتي، ورحت أبحث عما يجب أن أريد"[90]

يعبّر هذا النص عن إنكار سحر لما تريده هي بسبب الخوف، وبحثها عن واقع صنعه لها الوالد، والأم والمجتمع، رغم أن هذا الواقع متناقض مع ما تريده هي وترغب فيه.

أما الأم، وبعد كل المجهودات التي بذلتها لإثارة زوجها والتي لم تأت بنتيجة، نجدها تنكر أنوثتها، وتوظف آلية الإنكار لواقع علاقتها مع زوجها، فلم تعد تنتظر عودته من العمل، ولم تعد تدرب نفسها على حفظ كلمات كالامبريالية وايديولوجية الثورة، وصارت تحب الخروج وزيارة الجارات واكتفت بالعمل داخل المنزل والانشغال بالتنظيف "كــأنها تلبست دونيتها تجاهه، أو صارت تحتقره سرا"[91].

---

[88]-الشربيني، لطفي: معجم مصطلحات الطب النفسي، ص 41.

[89]-الرواية، ص 109.

[90]- الرواية، ص 109.

[91]-الرواية، ص 102.

كما نجد آلية الإنكار في شخصية العمة سامية، التي أنكرت أنوثتها ودوافعها الغريزية وفضلت العيش بمفردها حتى وفاتها.

ونجد إنكار سحر للرغبات الجنسية والشهوات ومشاعر اللذة خاصة في فترة المراهقة بسبب سيطرة مشاعر الخوف والذعر من رد فعل المحيطين بها، فتقول "ثقافة الذعر التي اعترت أوجه المحيطين بي كلما جئنا على ذكر لفظة قبلة كانت تشعرني بأني أقـــارب مناطق ممنوعة، بي خوف من ولوجها، ورغبة عارمة في كشف ملابستها"[92].

وهكذا كانت سحر بين مشاعر متناقضة، خوف من ولوج تلك المناطق المحرمة وخوف من نظرة المحيطين ورغبة في اكتشاف الشهوة، هذه المشاعر المتضاربة ستجعل سحر لاحقا تبرر خيانتها مع ربيع، فتقول "هذه شهوتي التي منعت عنها تتجلى في الإثم وتنقذني من الرتابة والملل، هذا الضجر الذي انسكب فوق عنقي يزيله ربيع بلسانه، هذه أيامكم المملة، أنا أخونها، هذا الكذب على الذات الذي أورثتموني إياه أنا أخونه، هذا الشرف الذي طلبتم أن أصونه أنا أخونه"[93]، فبعد أن أنكرت سحر مشاعرها هاهي تبرر فعل الخيانة.

الخاتمة:

وعلى الرغم من أن نص "أنا، هي والأخريات" يتيح لنا إجراء قراءة نفسية متعددة الجوانب، إلا أننا اقتصرنا في هذه الدراسة على مفهوم آليات الدفاع عن النفس الذي سمح لنا باكتشاف جوانب خفية لشخصيات النص، كما سمحت لنا هذه الدراسة اختبار مدى فاعلية هذا المفهوم في دراسة النصوص الأدبية وكشف دلالتها ومعانيها العميقة، وهو ما يظهر في دراستنا لمختلف الآليات.

- لقد تجلى بعد دراسة نص "أنا، هي والأخريات" أن كل شخصيات الرواية مضطربة نفسيا ومتأزمة، خاصة الشخصيات النسويةالتي تعاني هيمنة وعنف السلطة الذكورية.
- تــوظف شخصيات الرواية قصد التخلص من مشاعرها السلبية والمؤلمــة آليات دفاعية، تمثلت أبرزها في آلية الخيال والتخيل، آلية الكبت، آلية الصراع النفسي.

[92]-الرواية، ص 99.

[93]-الرواية، ص 101.

- ترتبط بعض الآليات بأمراض نفسية، وهذا ما لاحظناه في ارتباط آلية الكبت بالهستيريا في شخصية سحر، وكذلك في شخصية الأم، وارتباط آلية الإحباط باضطرابات الشخصية في شخصية الأب.
- وتوجد آليات دفاعية أخرى لم نتعرض لها بالدراسة والتحليل مثل آلية التحويل، آلية التبرير، آلية التكوين العكسي وغيرها.